الشعر فى السودان

للأستاذ على الجارى

— ٦ —

لم يكن غرضى فى هذه الأحاديث أن أعسر الحساب مع شعراء المدرسة القديمة ، ولا أن أتتبع هفواتهم ، وأخطاءهم ، وإنما أردت أن أكون مؤرخا . وهذا هو الهدف الرئيسى لهذه البحوث ، فإذا صحب ذلك شىء من النقد فإنما هو استطراد واستتباع ، وليس من الإنصاف أن نفرض فى ثنايا هذا الشعر محققين مدققين ، وحسبنا أن نقف هذا الموقف (السمح) وأن نلمس هذا الشعر لمساً خفيفاً رفيقاً وأن نبرز صفاته العامة ، ونكشف سماته المشتركة ، دون أن ندخل فى التفاصيل فنحكم لشاعر على شاعر ، أو نضع الشعراء فى طبقات كما كان يفعل بعض النقاد القدامى ، فذلك مالا أريده ، أو بالأحرى ما أعتقد أنه من غرضى بمنأى ، وإنما كان الإنصاف فى مسلكى الذى سلكته لأنه يكفينا من هؤلاء الشعراء أنهم قالوا الشعر فى تلك الأيام الخوالى بل قالوه فى أغراض لم تكن البيئة مهيأة لقبول القول فيها .

لا تعرف الملل والكلل ، ثم استقدم أفراد أسرته وسكن القاهرة ناسياً بها لقيه من تشجيع وتنشيط كل ما لقيه فى دمشق من ذل ومهانة ...

وكان التمثيل مجهولا فى هذه البلاد التى قطنها ، ولقد أقبل أهلها على مشاهدة رواياته إقبالا منقطع النظير ، وعاد إليه حظه الباسم وحياته المرحة . ومن أشهر رواياته التى فتن المصريين بها رواية عنترة ، أنس الجليس ، ناكر الجميل ، « مقربات » « عفيفة » ملتقى الخليفتين ، « الكوكبين » « الأمير محمود » « السلطان حسن » « أسد الشرى » « لويسا » وغيرها من الروايات التى سحر الناس بها ، وزادة فى الافتتان بهذه الروايات طبعها بأروع فضله وتصاورتها الأيدى ، وأمست شغل الناس الشاغل ...

بتبع — دمشق — حسنى كنعان

ولعل بهذه الكلمات أكون قد أجبت ذلك الفاضل الذى كتب إلى (يلومنى) على أنى أكتب بقلم المؤرخ لا بقلم الناقد وأتجاوز عن أشعار كان الواجب يقتضينى أن أكشف للقراء بهرجها ، ثم أمضى إلى الغرض .

فى حديثى السابق تحدثت عن شعر النسيب ، وذكرت أن كبار العلماء قد خاضوا فيه ، وفى حديث أسبق تحدثت عن مكانة المدائح النبوية وكثرتها عند السودانيين ، وكان وقع فى نفسى حين وجهت النظر إلى كتابة هذا البحث أنى سأظفر بفصائد رائعة فى الغزل على طريقة (ابن الفارض) فإن جميع الأسباب كانت مهيأة لهذا الغزل الإلهى ، فكثير من العلماء الزهاد شعراء ، وقد بدت رقيباتهم فى شعر الغزل . ولشعر ابن الفارض مكانة خاصة عند المتصوفين من هؤلاء العلماء ، ولكن شد ما أخذ منى العجب حين لم أجد من هذا النوع شيئاً تطمئن إليه النفس ، ولاشك أن خلو الشعر السودانى من هذا النوع — وقد تهيأت أسبابه — أمر يدعو إلى العجب .

ولكان الدين عند الشعراء لا تجد الهجاء غرضاً فاشلا فى أشعارهم ، والذين قالوا فى هذا الغرض لم يطيلوا فيه ، بل ربما ذكر البيت والبيتين ومروا به مروراً سريعاً . ومن القليل أن ترى هجاء مستقلا ، وهو — مع ذلك — لا يبدو الطريقة العامة من الرمى بالنفاق والغدر والكبر ، وربما رقى الهجاء وتبذل ولكنه بعد ليس أليم الوخز ، ولا نافذ السهم ، يقول الأستاذ صالح عبد القادر يهجو ذليلا أحدث نعمة فطفى أن رآه استغنى ، فى قصيدة مطلعها .

لا تفرحنْ بنعمة إن الزمان له انقلاب

وبعد أن وصف الزمان وأنه بحكم يرفع الذئاب إلى مرتبة الأسود ، وينقل الملك العظيم من سرير الملك إلى أعماق القبر قال :

ولقد رماك الدهر حـ ـتى هنت فى نظر الكلاب
أنا على مـاضيك لم نسدل ستاراً أو حجاب
أنسيت توصك فى الترا ب فصرت تحكم فى الرقاب
أنسيت أيام (البليـ ـلة) والبسارة والحباب
فتدوت تأكل ما علمـ ـت وما جهلت من (الكباب)
جـلّ المهيمن إنه يهب الأنام بلا حساب

وإذا وصل بنا القول إلى هذا الشعر الفكاهي فإنا نقول إن الفكاهة ليس لها مكان في البيئات المتدينة ، بل إن الشعب السوداني لا يكاد يقبل عليها ، وربما كان لذلك أسباب كثيرة غير التدين ، ومن الممكن أن نقول أنه ليست هنا فكاهة مستقلة . ولقد دأبت بعض المجلات السودانية على أن تنشر طرائف يتفكه بها القراء فكان اعتمادها على ما ينشر في المجلات المصرية ، ونتيجة لهذا قلت الفكاهة في الشعر السوداني ، على أنا نلمحها لمحاً في بعض القصائد ، فهي لا تكاد تأخذ إليها نظر القارىء ولا فكره . وربما جاءت في أثناء الهجاء ، أو في معرض شكوى ، أو في رثاء شيء فقده شاعره ، وقد تكون الشكوى مرة عميقة ولكن الشاعر يسوقها في شعر خفيف يظنه القارىء يميل إلى الفكاهة ، وما هو إلا الجد في معرض الهزل ، يقول الشاعر الشيخ حسيب في (مرتبه) .

أمرتبي مالي أراك (م) تصرت عن نيل المراد
أشكوك أم أشكو إليك نوازل المحن الشداد
الشهر باق جله وبقاك آذن بالنفاد
أنا إن حييت سأشتري حظي بأطراف الحداد
أما السراع فإنني لم أجن منه سوى الكساد
يا صاحب الدرجات والقانون والرأي السداد
أطلق فداك مرتبي بعض القيود لكي يزاد
رفقاً بمن قيدته بقيود (ثامنة) شداد
فكأنني وكأنه ظمآن آلم في وهاد
وكأنني متقلد من غير ما سيف نجاد

ولقد أعجبني حقاً هذا التشبيه ، تشبيه موظف في الدرجة الثامنة ، والحياة عليه قاسية ، ومرتبه لا يفي بضروريات عيشه ، برجل متقلد نجاداً ، ولكن ليس معه السيف ، فيخاله الناس صاحب سيف يرد به حوادث الأعداء ، فإذا هو أعزل ليس له من السيف إلا حمالته التي لا تدفع عدواً ، وهذا يسميه الناس موظفاً ، ويرونه بروح ويغدو على عمله ، وربما حسدوه ، فإذا هجمت عليه موادي الأيام ، وحزبته ضرورات العيش ، فتش في جيوبه ليجد ما يردها ، ولكنه لا يجد إلا نجاد السيف ؛ أما السيف فهي أوهام الناس وخيالاتهم .

وهذه قصيدة في رثاء ساعة فقدها الشاعر فبكاها ، وليس لشعراء السودان اتجاه — إلا قليلا — للقول في الأشياء الصغيرة ، وكأنهم لا يرون الشعر إلا ما كان في مدح أو هجاء أو رثاء ، ولكن هذا الشاعر تظرف فقال في ساعته :

لي ساعة معروفة بالصدق في جنح الظلام
لا البرد يوقفها ولا يودي بسرعتها النمام
اغتالها الدهر الخئون ، وليس سلما للكرام
لم يغن عنها حصنها جيب القباء أو الخزام
أحفيظة الوقت الثمين وخير ساعات الأنام
أصبحت بعدك فوضويا لا أساس ولا نظام
أبداً تحث على المضي إلى الأمام إلى الأمام
تفديك ساعات تؤخر أو تقدم أو (تنام)

أما الجد فهو السمة الغالبة على الشعر السوداني كله ، ولا سيما حين يفخر الشاعر أو يصور بعض أحوال قومه ، فهذا[1] يقول :

أيها الدهر أما من معشر حكموا الرأي وهزوا العلما
فاسأل العالم عنا إننا أمة كنا وكانوا عدما
من لقومي إنهم قد أهملوا ما بنى آباؤهم فانهدما
يا بني قومي أفيقوا أنكم ما خلقتم لتعيشوا (غنما)
ليتني أعرف ما أخركم سادة كنتم فصرتم خدما
ولقد يحزنني أني أرى رأيكم مختلفاً منقسما

وذاك[2] يقول :

كم وقفة لي أبكيت الجماد بها أحسته وهززت النيل والهرما
حليت عاطل جيد الدهر منه بها ودالغواني لو أن جيدها نظما (كنا)
مضى زمان وقلبي ممتلئ ألما وفي فؤادي أسى كالنار مضطرما
حزناً على أمة بالنيل نائمة تشكو الأوار وأخشى أن تموت ظما

وأما القول في الخمر فهو قليل ، وطبعي أن يقل القول في هذا الغرض لسيادة التدين على النفوس ، على أنا نجد بعض الشعراء يتغاضى عن مواطف الناس ، ويقول فيها ما يحلو له ، فهذا عثمان هاشم يجاهر بالقول فيها ، مع ما لبيته من مكانة دينية يقول :

أدر الراح علينا باليمين تحت ظل الورد بين الياسمين

(١) هو الأستاذ صالح عبد القادر محرر مجلة (هنا أم درمان) .
(٢) هو الأستاذ عبد الرحمن شوقي .

ضن رب الحان للشرب بها واسطفاها إذ رآنا قادمين
ملأ الأقداح منها بعد ما راضها بالمزج من ماء معين
فشربناها غبوقاً في الدجى ووصلناها صبوحاً بالأذين

وأنا شديد الإعجاب بهذه الاستعارة الفذة (راضها بالمزج) فإن الخمر — على ما أعرف من قراءاتي — تكون كالفرس الجموح فإذا صب عليها الماء هدأت وسكن بعض سورتها ، وكم بين رياضتها بالمزج في قول هذا الشاعر ، وبين قتلها بالماء في قول حسان بن ثابت :

إن التي ناولتني فرددتها قتلت قتلت فهاتها لم تقتل

كم بينها من مشابه يعرفها الخبيرون !

هذا . ودق أن نسرج النظر قليلا في أسلوب هذا الشعر ، فنقول إن الطبائع العربية ، واللهجات العربية أظهر ما تكون في سكان السودان ، وكثير من الكلمات العربية الفصيحة يستعملها العامة كما يستعملها الخاصة ، وهنا — كما في كل مكان — ألفاظ خاصة لها حظوة فهي كثيرة الدوران على الألسن ، فإذا فتشنا عن هذه الألفاظ لا نجد لها في الشعر أثراً ، كما أنا نفتقد الألفاظ الجزلة ، والأساليب الضخمة ، مع أن كثيراً من الشعراء كانت لهم أقدام راسخة في اللغة والأدب ، لكن الشعراء مقرمون بالبديع ، وربما تكلفوه تكلفاً ، فالجناس والتورية ، وحسن الابتداء وحسن التخلص ، من مقاصدهم الشعرية ، فمن التورية قول أحدهم في صديق له اسمه شوقي :

إن نسوا ودك يا شوق فما أنا إلا حافظ ما جهلوا

وقول الآخر :

ولست بخائف حصرا وعيا وشوقي فيه يملي نشيدي

ومن الجناس قول الشيخ عبد الله عبد الرحمن يخاطب الأستاذ علي بك الجارم حين زار السودان :

أما استعارات البيان فإنها عبء ينوء به الشباب ثقالا
يجرون أميالا ولا يجرونها ويرون في طرقاتها الأوحالا
ها (عرنجالي) يا علي مقدماً ما حائل من دون عرضي حالا

ومن حسن التخلص قول الشيخ محمد عمر البنا :

وليل بت فيه سمير أنس قرير العين مشروح الفؤاد
كأن سناء أنجمه علينا أيادي الشهم عثمان الجواد

وللشعراء ولوع بالتأريخ الشعري ، وله أمثلة كثيرة في أشعارهم ، وقد ينظمون شعراً يمكن قراءته على وجهين ومن ذلك قول الحبر الجليل الشيخ الأمين[1] الضرير من قصيدة نبوية كبيرة :

حمداً لمن أبدى لنا سبحانه من أمنا بهداه إذ قد صانه
نبياً صريحاً عن خفي ومكانه في القرب لم يدرك رسول ذوتنا

فيمكن جعل هذين البيتين ثلاثة ، فتكون نهاية البيت الأول (أمنا) ونهاية البيت الثاني (عن خفي) وهكذا كل القصيدة .

وبعد فقد أمتد بنا نفس القول في شعر هؤلاء الشعراء الذين كانوا الهداة الرائدين ، وما بلغنا الغاية ، ولكنا سنكتفي بما قلناه ، لنفرغ لشعر شباب السودان ، ونرى إلى أي شوط جروا في نهضتهم الشعرية ، ونأمل أن نبلغ من ذلك وطرا ، ونستعين الله ، وبه التوفيق والسداد .

علي العماري
مبعوث الأزهر إلى المعهد العلمي بأم درمان

(١) الشيخ الأمين محمد الضرير كان من علماء السودان الأعلام ، ويقول عنه صاحب (شعراء السودان) : « كان سهماً مطاعاً في عشيرته ، نافذ الكلمة عند الحكام ، شجاعاً ، منتصراً للحق ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، وهو بعد ذلك شاعر من الشعراء الفطاحل تم قصائده مما حوى ذلك الصدر الرحيب من سعة الاطلاع ، والتبحر في اللغة والأدب » وأقول . وهو كذلك وقد رثى جيلا من علماء السودان وأدبائه لا يزالون يقرون له بالفضل ، ولا يزال العلم والفضل في ذريته ، وتلاميذه (علي) .

إدارة البلديات ـ مياه

تقبل المطاءات بإدارة البلديات العامة (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ١٩٤٩/٢/٦ عن عملية توريد مواسير وقطع زهر وأدوات مياه لمجلس طنطا البلدي (شارع محب باشا)

وتطلب الشروط والمواصفات من الإدارة على ورقة تمغة فئة الثلاثين مليما مقابل دفع مبلغ ١ ج خلاف أجرة البريد .

١٠٥٥